ومؤلفات أطباء أندلسيين كأبي الواقد، وأبي القاسم الزهراوي (ت411 هـ).

ومثل الشريف الادريسي (ت 457 هـ) في الجغرافيا.

وغيرهم[58] كثيرون ممّن ألّفوا كتبهم باللغة العربية ودرست في أوربا فكانت هي المنار التي أضاءت للغرب طريق العلم، وأخرجتهم من ظلمات العصور الوسطى إلى عصر النهضة الحديث.

حركة تنقية اللغة :

نضجت في العصر العباسي حركة تنقية اللغة العربية نضجاً تاماً، خاصة في عهد هارون الرشيد كما يشير إلى ذلك المستشرق يوهان فك[59]، ويضيف قائلا : «كان عصر هارون الرشيد هو العصر الذي وجدت فيه لغة الشعب للمرة الأولى مساغاً في التعبير الأدبي، فكما في قصة جدّ معروفة، يروى أن هارون الرشيد بعد أن قضى على البرامكة منع الناس أن يبكوا القتلى في مراث تشيد بذكرهم، ولكن جارية لجعفر بن يحيى بن خالد بكت سيدها القتيل في قصيدة نظمتها باللسان الشعبي تختم أبياتها بقولها يا مواليا»[60].

وإذا كانت اللغة العربية الفصحى في أكثر الأوقات هي لغة العلم والأدب في حواضر الدولة العباسية، فإن اللغة الفصحى لم تستعملها الطبقات الدنيا أو الوسطى في حياتها اليومية[61] وهو أمر طبيعي عرفته حياة الجاهلية أيضاً، فهناك مقام الأدب والعلم يستوجب المستوى الفصيح، وهناك مقام التخاطب العادي والحوار الشعبي، ولا يتطلب هذه الفصحى المقيدة بضوابط كثيرة، وتختلف المستويات باختلاف المتكلمين.

كما أن اللحن لم يسلم منه حتى بعض كبار علماء اللغة العربية حين لا يتحفظون في كلامهم فها هو ذا الفراء (المتوفى سنة 207 هـ) يلحن في مجلس الرشيد ويعلل ذلك بقوله : «إن طباع أهل البدو الاعراب، وطباع أهل الحضر اللحن، فإذا تحفظت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لَحَنْت»[62]. واللغة الدارجة التي كانت تتفاهم بها الطبقات الوسطى والدنيا من سكان المدن منذ نشوئها في عصر الفتوحات الاسلامية الأولى، تعدّ عربية مولّدة في نظر التاريخ اللغوي ونماذج هذه العربية المولدة تتضح في العربية التي نجدها في الأدب اليهودي والنصراني في القرون الوسطى التي نشأت من الاستعمال اللغوي عند طوائف اليهود والنصارى خارج الجزيرة العربية، الذين لا صلة لهم بالبادية وعربيتها، بل استخدموا منذ البدء العربية المولدة الدارجة، التي نشأت من حياة العرب ومخالطتهم للشعوب التي أخضعوها، فصارت لغة التخاطب والتفاهم، والتي تتميز بسمات وخصائص مشتركة يمكن تلخيص ظواهرها اللغوية بما يأتي[63] :

1 ــ في الأصوات، حيث مالت إلى السهولة والتيسير كحذف الهمز الذي استفاض في العصر الجاهلي في لهجة الحجازيين، وأخذ في العربية المولدة صورة واسعة ذات أثر واضح في صوغ القوالب.

وتخففت من الأصوات التي تحتاج إلى جهد عضلي خاصة تلك الأصوات التي لا نظير لها في اللغات الأخرى. فتغير حرف الضاد ــ وهو خاص بالعربية بحيث يسمى العرب الناطقين بالضاد ــ تحول إلى ظاء أو دال مفخمة أو عادية، أو طاء، أو لام مفخمة.

وهناك تغير صوتي آخر في العربية المولدة وهو يتعلق بالسين والصاد، ففي العربية القديمة نجد صيغاً مزدوجة مثل صراط وسراط[64]، وصويق وسويق[65]، وفي لهجة بلعنبر[66] ــ أحد أفخاذ تميم ــ يكاد يوجد هذا التغيير باطراد إذا جاء بعد السين

أحد الحروف الأربعة التالية : (ط، ق، غ، خ) ولو بفاصل كما روى ذلك أبو الطيب اللغوي[67] نقلا عن الفراء وعلل ذلك بقوله : «إن الطاء حرف تضع لسانك في حنكك فينطبق الصوت فتنقلب السين صاداً صورتها صورة الطاء واستخفوها ليكون المخرج واحداً كما استخفوا الادغام. ويبدو أن هذا التعليل موافق لما ذهب إليه المحدثون[68] حيث ذكروا أن حروف الاطباق أو التفخيم — وهي الصاد والضاد والطاء[69] وأضاف بعضهم[70] الخاء والغين والقاف — حين النطق بها يرتفع مؤخر اللسان في اتجاه الطبق بحيث لا يتصل به على حين يجري النطق في مخرج آخر غير الطبق[70] لذلك أبدلوا الصاد بالسين كي يرتفع اللسان باتجاه واحد.

وقد ذهب متأخرو النحاة[71] إلى تعميم جواز ذلك التغير الصوتي بالشروط المذكورة وعلل ابن يعيش[72] سبب ذلك التغير بقوله : «إن هذه الحروف مجهورة مستعلية والسين مهموس مستفل فكرهوا الخروج منه إلى المستعلى لأن ذلك مما يثقل فأبدلوا من السين صاداً لأن الصاد توافق السين في الهمس والصفير وتوافق هذه الحروف في الاستعلاء فيتجانس الصوت ولا يختلف» ويقصد بقوله : «الاستعلاء» علو مؤخر اللسان في اتجاه الطبق وهو يعني الاطباق أو التفخيم حسب رأي المحدثين[73].

ونجد في بعض الألفاظ المولدة قد استعملت الصاد بدلاً من السين في أحوال لم تتوفر فيها الشروط السالفة مثل : (صَنَام) بدلا من (سنام). كما نجد في اللهجة الجزائرية[74] الحديثة يقولون (قاصح) بدلا من (قاسح) أي صلب فاستعملت الصاد بدلاً من السين والصاد والسين صوتان رخوان مهموسان ينطقان بطريقة واحدة مع فارق واحد هو أن مؤخر اللسان يرتفع ناحية الطبق مع الصاد ولا يرتفع مع السين، فالصاد صوت مطبق والسين صوت مرقق وقد حصل هذا التغير بعد أن حدث العكس حيث تقدمت القاف على السين.

وقد عارض النظر بن شميل[75] (المتوفى حوالي 203 هـ) الرأي القائل بأن السين تقع أحيانا موقع الصاد على حين روى عن الزّجاج النحوي (المتوفى 321 هـ) أنه كان يرى جواز إبدال كل من الحرفين بالآخر[76].

وقد سجل الجاحظ (المتوفى سنة255 هـ) بعض العبارات من لغة الحديث اليومي والتي توضح بعض الظواهر الصوتية السائدة آنذاك ويظهر أثر الأصوات الأجنبية في نطق بعض المتكلمين باللغة العربية فيقول : «ألا ترى أن السندي إذا جلب كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زاياً، ولو أقام في عليا تميم، وسفلى قيس، وبين عجز هوازن خمسين عاما. وكذلك النّبطي القح... لأن النبطي القح يجعل الزاي سينا، فإذا أراد أن يقول زورق قال سورق ويجعل العين همزة»[77] كما ذكر الجاحظ في موضع آخر أن زياداً الأعجم كان يجعل السين شيناً[77]. وذكر كذلك أن بعض مواطن الدولة الاسلامية من غير العرب لم يكونوا يميزون تمييزاً واضحاً بين الذال والدال.

وأطلق الجاحظ على ظاهرة عدم قدرة المستعربين على النطق بالأصوات العربية اسم : اللُكنة بضم اللام فقال : «ويقال في لسانه لُكنة إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول»[78].

2 — في البنية الصرفية :

أخذت اللغة المولدة طابعاً جديداً يتمثل بإدخال بعض الوحدات الصرفية على ما تمنع الفصحى دخوله عليه كإدخال أداة التعريف (ال) على ألفاظ (كل، بعض، غير) كقولهم : «الحيوانات الغير ناطقة»، وفي التراكيب العددية مثل : «ما فَعَلَتْ

الثلاثة الأثواب»(79) فيعرفون الاسمين ويضيفون الأول منهما إلى الثاني، والصواب أن يعرف الأخير من كلّ عدد مضاف فيقال: «ما فَعَلَتْ ثلاثة الأثواب ؟».

وقامت اللغة المولدة بإثبات نون التثنية والجمع التي تحذفها العربية الفصيحة لدلالة نحوية معينة عند الاضافة مثلاً.

3 ــ في التركيب النحوي:

إنّ ترك الاعراب في أواخر الكلم يجعل من المُتَعَذّر تمييز الفاعل (إلا إذا كان في صورة ضمير يتميّز بصيغته) في آخر الجملة أو بعد المفعول كما يصعُب معرفة وظيفة الكلمة في الجملة لذلك استعاضت عنه اللغة المولّدة بترتيب الكلمات ترتيباً آخر: فلتمييز الفاعل من المفعول قامت بتقديم الفاعل على الفعل الذي يأتي بعده المفعول مباشرة وذلك حينما يكون الفعل متعدّياً.

أما إذا كان الفعل لازماً فهو مخيّر بين تقديم الفعل على الفاعل أو تأخيره عنه وبذلك نرى أنّ اللغة الدارجة تخلّت عن الاعراب الذي يَفْصَحُ عن الوظيفة النحوية للكلمة وقد صارت الوظيفة النحوية في الاحساس اللّغوي الحي موقوفة على علاقات مواضع الكلمات لا على إعرابها.

كما أنّ الخلط بين علامات الاعراب كان يعدّ طابعاً مميزاً لطريقة التعبير الشعبي وهذا ما يوضحه الجاحظ(80) في الأمثلة التي أوردها نماذجا للكلام الملحون مثل:

ذهبت إلى أبو زيد (بدل: ذهبت إلى أبي زيد)

ورأيت أبو عمرو (بدل: رأيت أبا عمرو)

كما ورد في الأمثلة:

«مكره أخاك لابطل» بدلاً من (مكره أخوك لابطل)

«وإذا عزّ أخاك فهن» بدلاً من (وإذا عزّ أخوك فَهُن)

وكذلك ظهر اختلاط علامات الاعراب في النصوص النصرانية العربية للقرن الثالث الهجري مثل: «لا يستطيع أحداً» أو «لايستطيعْ أحدْ من الناس أمرْ مثلْ هذا»

ومثل «يَدَيك خلقتاني»(81) بدلاً من «خلقتني يداك».

كما نرى بعض التراكيب الأعجمية في اللغة العربية قد انتشرت في أسلوب كتبة أهل العصر العباسي الأول وذلك يتضح فيما ينقلونه من الأفكار الأعجمية.

ويعتقد أن أسلوبهم قد دخله شيء من الضعف والركاكة ومثال ذلك:

إدخال الألف والنون قبل ياء المتكلم في بعض الصفات كقولهم روحاني ونفساني ونحو ذلك مما هو مألوف في اللغات الآرية ولا يستحسن في اللسان العربي(82).

ومن التعبيرات التي اقتبست من اللغة اليونانية(82):

اــ تركيب الألفاظ مع (لا) النافية وإدخال (ال) التعريف عليها كقولهم (اللانهاية) و(اللاضرورة).

ب ــ صوغ الاسم من الحروف أو الضمير مثل قولهم: الكيفية والكمية، والماهية.

ج ــ نقل الألفاظ الوصفية إلى الاسمية كقولهم: المائية ومن ذلك أيضاً اقتباسهم بعض التعبيرات الفارسية الادارية مثل قولهم (صاحب الشرطة) و(صاحب الستار) وهو تعبير فارسي(82).

4 — في دلالة الألفاظ :

وتتضح هذه الظاهرة اللغوية من خلال ما استعمله مترجم الانجيل للألفاظ اللغوية ودلالتها على المعاني المستعملة في العصر العباسي الأول، حيث استعملت في غير موضعها الصحيح ومن تلك الأمثلة(81) :

استعمال (من حيث) بمعنى (في حالة)

وكثر استعمال (فيما) بمعنى (بينما)

واستعمل (من حين) بمعنى (منذ)

واستعمل أيضاً (إلى حين) بدلاً من (حتى)

كما أن اسم الموصول : (الذي) تحوّل أخيراً إلى الصيغة الجامدة في جميع الأحوال وهي (اللّي)، ومثل هذا الاستعمال لاسم الموصول (اللّي) مازال مستعملاً في جميع اللهجات العربية الحديثة(83).

وهذا الاستعمال الواسع لهذه اللفظة في جميع البلدان العربية في الوقت الحاضر قد فسره بعض الباحثين(84) بأنه قد تكون له جذور في لهجة عربية قديمة لم ترو لنا في المعاجم العربية. كما أنّ بعضهم(85) يرجح أن يكون أصلها (ال) ثم حرفت، ونحاة العرب(86) لا يختلفون في اعتبار (ال) موصولة بمعنى (الذي). وبعضهم يرى أن بعض القراء قد قرأ بتخفيف الهمزة من اللاء وقياسها أن تجعل بين بين وفي هذا قال الكميت :

وكانت من اللاّ لا يعيرُها ابنُها
إذا ما الغلام الأحمق الأمّ عيّرا

وإنّ تخفيف الهمزة من (اللا) أخف على اللسان من نطقها مهموزة (اللاء).

ومثل هذه القراءة انساقت إليها الدارجة بعد إمالتها فأصبحت (اللي) بدلاً من (اللا) وصارت اسماً موصولاً يدل على المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث على السواء(87).

وإني أرى أنّ اسم الموصول (اللّي) هو تطور لاسم الموصول (الذي) حيث إنّ اللهجات المولّدة قد مالت إلى التيسير، وإنّ الانسان يميل بطبعه إلى الاقتصاد في المجهود العضلي ولأجل أن يرتفع اللسان ارتفاعاً واحداً بدلاً من ارتفاعين، قطعت الذال لأنّ نطقها يحتاج إلى ارتفاع اللسان مرة أخرى بعد أن ارتفع في المرة الأولى مع اللام وحيث إن اللام صوت لثوي، أي ينطق بأن يتصل طرف اللسان باللثة ويرتفع الطبق فيسُدّ المجرى الأنفي عن طريق اتصاله بالجدار الخلفي للحلق.

وإنّ الذال صوت أسناني أي يُنطق بأن يوضع طرف اللسان بين أطراف الثنايا ويرتفع الطبق ليسُدّ المجرى الأنفي بأن يلتصق بالحائط الخلفي للحلق.

لذا قطعت الذال اختصارا للمجهود العضلي كما أن نظرية السهولة تميل إلى الابتعاد عن المخارج المتقاربة، قال ابن دريد(88) «إن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت».

وإن نظرية السهولة والاقتصاد في الجهد العضلي من النظريات التي اعترف بها المحدثون(89) في التطور الصوتي .

يضاف إلى ذلك أن كثرة استعمال اسم الموصول أدى إلى تخفيفه وتسهيله في النطق وأن حرف الذال من الحروف الثقيلة على ألسنة العرب، فقد قال ابن دريد عن استعمال العرب للحروف : إن «أقلّ ما يستعملون على ألسنتهم لثقلها الظاء ثم الذال ثم الثاء(90)...»الخ. لهذه الأسباب نرى أن اسم الموصول (الذي) قد شاع في أغلب اللهجات الحديثة بصورته الحالية (اللي).

اللهجات المعاصرة :

ومن المعروف أن اللغة عندما تنتشر في مناطق واسعة من الأرض تحت تأثير عامل أو أكثر من العوامل التي تؤدي لانتشار اللغة(91) وتكلمت بها

طوائف مختلفة من الناس استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى فترة طويلة فلا تلبث أن تنشعب إلى لهجات وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات في سبيل تطورها منهجا يختلف عن منهج غيرها.

وهكذا كان لابد أن ينطبق هذا المبدأ على اللغة العربية عند انتشارها بعد الفتوحات الاسلامية الواسعة وكما يقول أحد الباحثين(92) : فإن اللغة «فرضت نفسها لسانا للمتكلمين في البلاد التي أظلتها راية الفتح وكادت أن تمحو لغة الأوطان محوا، ولكنها مع ما أعطت أخذت من كل وطن بجديد، ودس فيها ما لم يكن منها وتأثرت اللهجات العربية الشائعة على ألسنة العامة هنا وهناك».

ولم تستطع العربية الفصحى أن توقف هذا التيار الجارف ـ تيار العامية ـ كما لم تستطع قواعدها أن تسيطر على ألسنة الناس فاستمر التحرر من قواعد الاعراب، واستمر توليد الألفاظ فتكونت بسبب ذلك لهجات عربية حديثة في كل إقليم عربي.

فكل لهجة اتخذت أسلوبا يختلف عن غيره من أساليب اللهجات الأخرى في النطق، على أن هناك شيئا واحدا وصلت إليه هذه اللهجات المنشقة عن الفصحى، وهو سقوط الاعراب من أواخر الكلم.

والانحراف عن الفصحى التي اتصفت به اللهجات العامية يحدث في أغلب الأحيان لأجل التخفيف في النطق ويتحقق هذا بعدة طرق يمكن أن أوجزها فيما يأتي : (93).

1 ـ بزيادة حرف ـ وغالبا ما يكون حرف لين ـ نحو قولهم : «راجل» بدلا من «رجل» و(دواية)بدلا من (دواة) في اللهجة المصرية(94) وقولهم : «رجّال» بدلا من (رجل)في اللهجة العراقية(95)) وقولهم : «الحاسي» بدلا من (الحسْي) وهو للبئر(96) في اللهجة الجزائرية(97). والحرف الزائد الذي تولد في (راجل) و(الحاسي) هو نتيجة اشباع صوت الفتحة كما يبدو.

2 ـ بتخفيف الهمزة كقولهم «بير» بدلا من (بئر) في اللهجةالعراقية(98) والمصرية(99) وقولهم «رايح» بدلا من (رائح) في اللهجة العراقية(100) والجزائرية(101) ويقولون «أوميت» في (أومَأت) في اللهجة العراقية وينطقونها بضمة فوق الهمزة ممالة نحو الفتحة.

ومثل هذه اللهجة قد نهى عنها الجوهري في الصحاح(102) وقال : «ولا تقل أوْمَيْت».

وردّه الشهاب الخفاجي بقوله «الصحيح أنه لغة مسموعة» قال :

أومى إلى الكوماء هذا طارق
نحرتني الأعداء إنْ لم تنحري

وقال اللبلي في شرح الفصيح (أومأت إليه) أشرت بيد أو حاجب، مهموز.

قال ابن درستويه والعامة تقول أوميت.

وحكى ابن قتيبة في أدب الكاتب (أوميت) وعن ابن خالويه (وميت) وحكاه يونس في نوادره(103).

وتسهيل الهمزة وتخفيفها معروف منذ القدم فقد مالت كل اللهجات السامية إلى التخلص منها في النطق(104). كما عرف عن الحجازيين تسهيل الهمزة فلا ينبرونها إلا إذا أرادوا محاكاة التميميين في تحقيقها استلطافا لهذه الصفة الحلوة من صفات لهجتهم(105) لهذا فلا عجب إن تخلصت معظم اللهجات الحديثة من تحقيق الهمزة لما يحتاجه تحقيقها من جهد عضلي.

3 ـ وقد يكون باتباع حركة أول الكلمة للحرف الليّن الذي في وسطها فتحدث الامالة كإمالة الفتحة نحو الكسرة كقولهم :

«زيتْ»(٭) بدلا من «زَيْت»

«دين» بدلا من «دَيْن»

«سيف» بدلا من «سَيْف»

في اللهجة العراقية(106) وقولهم :

«بيت» بدلا من «بَيْت»

في اللهجة العراقية(106) والمصرية(107)

والامالة هي ضرب من الانسجام والتقريب والهدف منها كما يقول ابن يعيش (108) : «تقريب الأصوات بعضها من بعض لضرب من التشاكل» فسبب الامالة هنا هو لتناسب الأصوات وتقاربهما وذلك لأن النطق بالياء والكسرة مستفل منحدر، والنطق بالفتحة والألف مستعل متصعد ، ففي الامالة صارت الالف من نمط الياء في الانحدار والتسفل.

4 — إبدال بعض الحروف بأخرى أسهل في النطق كقولهم :

«بحتر» بدلا من «بعثر»

في اللهجة المصرية(109) فأبدلت العين خاء.

والعين هو «صوت مجهور مخرجه وسط الحلق. فعند النطق به يندفع الهواء مارا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين حتى إذا وصل إلى وسط الحلق ضاق المجرى»(110) والحاء هو الصوت المهموس الذي يناظر العين، ومخرجها واحد، ولا فرق بينهما إلا في أن الحاء صوت مهموس نظيره المجهور هو العين.

وقد نبه الخليل بن أحمد(111) إلى هذا الفرق بينهما فقال : «ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها» وذكر مثل هذا ابن جني(112) وأضاف قائلا : إن الحاء فيها بحة يجري معها النفس، وليست كالعين التي تحصر النفس(112).

وكلام ابن جني هذا يرشدنا إلى السبب في إبدال العين حاء وذلك لأجل التخفيف وسهولة النطق لأن الحاء يجري معها النفس ولا ينحبس كما في العين.

وأبدلت الغين خاء في بعض اللهجات العراقية(113) كقولهم :

«خَسَل» بدلا من «غسل»

«خَصَبَه، خَصْباً» بدلا من «غصبه، غصبا»

و«اخْتَال» بدلا من «اغتال»

والخاء والغين صوتان حلقيان مخرجهما واحد، وكل منهما صوت رخو مرقق إلا أن الفرق بينهما هو أن الخاء النظير المهموس للغين، أي أن الأوتار الصوتية تهتز مع الغين ولا تهتز مع الخاء.«فعند النطق بالخاء يندفع الهواء مارا بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين، ثم يتخذ مجراه في الحلق حتى يصل إلى أدناه إلى الفم»(114).

لهذا أبدلت الغين خاء لأجل التيسير وللسهولة في النطق.

5 — تخفيف النطق بإبدال الحرف المضعف ياء كقولهم :

«مدّيت» بدلا من (مددت)، و«فكّيت» بدلا من (فككْتُ) في اللهجتين العراقية(115) والمصرية(116).

وقولهم : «حِسّيت» بدلا من «حَسِسْت» في اللهجتين العراقية والجزائرية(117).

ويعرف مثل هذا الابدال عند علماء الأصوات(118) ب (قانون المخالفة)، وهو القانون الذي يعمد إلى صوتين متماثلين تماما في كلمة من الكلمات، فيغير أحدهما إلى صوت آخر يغلب أن يكون من أصوات العلة الطويلة أو من الأصوات

(٭) هذه العلامة (٭) ترمز لحركة الامالة أي : إمالة الفتحة نحو الكسرة أو إمالة الألف نحو الياء.